

الأعمى التظلي (485 . 525 هـ)

ثقافة وأدب :

كانت إعاقة أهم عنصر مؤثر في بناء شخصيته، وقد تقبل هذه الحقيقة بقدر كبير من التسليم والصبر، دون أن يتبرم بها، أو يشكو منها إلا في القليل من شعره، ولا يتحدث عنها إلا مضطراً وحين يشعر بقسوة الحياة عليه

وغالباً ما نلمح في حنايا قصائده بعض مظاهر الألم والأسى، ونسمع من بعض أشعاره ...
أنة الشكوى والتبرم والضيق بالظلم والتعسف اللذين سادا مجتمعه في إشبيلية

كثيراً ما نرى في مجتمعاتنا العربية أفراداً أصيبوا بنوع من التعويق البدني أو العجز الجسماني، يجعلهم غير قادرين على أداء أعمالهم الحياتية على الوجه المنشود. وقد تكون هذه العاهة البدنية عاهة خلقية، ظهرت في هذا الإنسان عند ولادته، ولا يد له في ذلك. وقد تكون عاهة طارئة تحولت إلى عاهة ثابتة نتيجة حادثة طبيعية أمت بهذا المرء كالسقوط والحريق والمرض وحوادث السيارات، وغير ذلك من الأحداث المختلفة التي يصعب حصرها في هذا المقال.

ويجد الفرد المصاب نفسه . بعد أن استنفد وسائل الطب والعلاج . فاقد الحيلة مسلوب الإرادة، وليس أمامه سوى الرضى بقضاء الله والتسليم له، والتسلح بسلاح الإيمان والصبر، والعمل من ثم بجد ودأب على تجاوز المحنة، والانتصار على العجز، للتعويض عن النقص الذي لحق به، باكتساب القدرة التي تؤهله للتفوق والنبوغ في كثير من الميادين التي يعجز أمثاله من غير المعاقين عن الوصول إليها.

ولعل الجاحظ هو أول من أبرز نظرية القدرة على التعويض، هذه القدرة التي يهبها الله عز وجل لهؤلاء الذين قصر حظهم في الحياة عن غيرهم؛ وذلك قبل أن يكتشف علماء النفس المعاصرون هذه النظرية بقرون عديدة. فيقول: (والعُزجُ الأشراف . أبقاك الله . كثير، والعُميُّ الأشراف أكثر... وإلى أن

جماعة منهم كانوا يبلغون مع العَرَج ما لا يبلغه عامة الأصحاء، ومع العمى ما لا يدركه أكثر (1) (البصراء).

وسوف نتناول في هذا المقال واحداً من هؤلاء النوابع في الفكر والفن والأدب، وهم كثر في تاريخنا القديم والمعاصر وسنبداً بالحديث عن شاعر ضير في أقصى بلاد المغرب العربي؛ من الأندلس (فردوس العرب المفقود) وهذا الشاعر هو الأعمى التظيلي، من شعراء القرن السادس الهجري.

الشاعر التظيلي: لقبه ونسبته

وهو أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، ويكنى بأبي جعفر وأبي العباس أحياناً، وينسب إلى تظيلة موطن أهله، وإلى اشبيلية حيث هاجروا وأقاموا، فيقال: التظيلي الإشبيلي، وكان ضيراً، Tudela. فغلب عليه لقبه ونسبته: (الأعمى التظيلي).

كففه وأثره في شخصيته وشعره

وقد كان العمى أهم عنصر مؤثر في بناء شخصيته، ويبدو أنه تقبل هذه الحقيقة بقدر كبير من التسليم والصبر، دون أن يتبرم بها، أو يشكو منها إلا في القليل من شعره، ولا يتحدث عنها إلا مضطراً وحين يشعر بقسوة الحياة عليه.

(2) ولعله يعبر عن هذا التقبل لواقع أمره بقناعة ورضى في قوله

عندي رضى بالله لا يعترني

ريب، يعرؤه البأس

غير أن العمى أثر في شعره، فقصر في مجال الوصف القائم على الرؤية، كما قلل من تغنيته بالمغامرة والتباهي بالأفعال، كما يفعل كثير من الشعراء

عصره وتنقلاته

قضى الشاعر معظم حياته في ظل دولة المرابطين التي حكمت الأندلس والمغرب مدة قرن من الزمان (448 . 541 هـ). وفي ديوانه إشارات إلى أمرائهم وقضاتهم ومن يتصل بهم، وكان أكثر مقامه في إشبيلية، ولكنه كان يخرج منها . أحياناً . إلى بعض المدن الأندلسية طلباً لرفد بعض الممدوحين فيها، وكان يلزمه في سفره، ويصاحبه في أكثر الأوقات شاعر معاصر له أعجب به، هو أبو القاسم الحضرمي المنيشي، نسبة إلى منيش من قرى إشبيلية. وبسبب هذه الملازمة كانوا يلقبون المنيشي هذا (عصا الأعمى)، وقد رحل إلى قرطبة حيث مدح قاضيها ابن حمدين، فأشاد:⁽³⁾ بيبأسه وجوده بقوله

تَسَامَى إِلَى الْعَلْيَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَالْعَظِيمُ عَظِيمٌ
يَدَاهُ بِهَا مَرْجُوءَةٌ أَوْ مَخَافَةٌ وَرِيحَاهُ فِيهَا لَاقِحٌ وَعَقِيمٌ

شكواه وتبرمه

غير أنه استغل مقدمة القصيدة ليبوح فيها بشكواه من الزمان، وبما يقاسيه من هموم وأحزان، فقال:

أَمَا يَشْتَقِي مَنِّي الزَّمَانُ يَرُوعُنِي وَتُقْعِدُنِي أَرْزَاؤُهُ وَتُقِيمُ
تَتَكَّرُ أَحْبَابٌ وَبَانَتْ حَبَائِبُ وَلَجَّتْ أَعَادٍ بَيْنَنَا وَخُصُومُ
وَأَطْلَعَتِ الْآيَامُ شَيْبًا بِمَفْرَقِي رَوَائِعُ تَلْحَى فِي الصِّبَا وَتُلُومُ

وغالباً ما نلمح في حنايا قصائده بعض مظاهر الألم والأسى، ونسمع من بعض أشعاره أنه:⁽⁴⁾ الشكوى والتبرم والضيق بالظلم والتعسف اللذين سادا مجتمعه في إشبيلية إذ يقول

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو الَّذِي نَحْنُ فِيهِ أَسَى لَا نُنْهِنُهُ مِنْهُ الْأَسَى

على مثلها فلتشقُّ القلوبُ
مكانَ الجيوبِ وإلا فلا
فَنَّا الظلمَ واغترَّ أشياعُهُ
ولا مُستغاثٌ ولا مُشْتكى
وسادَ الطعامُ بتمويههم
وهلَّ يَفدَحُ الرزءُ إلا كذا

أغراض شعره

طرق الأعمى التطيلي جميع أغراض الشعر، ولكنه أجاد في فني الرثاء والمدح، اللذين غلبا على شعره بسبب علته التي كان يعاني منها، إلا أنه في رثائه أصدق منه في مديحه. ومن أجمل: (5) مرثياته رثاؤه لزوجته التي سلبها الموت منه، فقال فيها متفجعاً

وَنُبِّئْتُ ذَاكَ الْوَجْهَ غَيْرَهُ الْبَلِيَّ
على قُرْبِ عَهْدِ بِالطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ
بَكَيْتُ عَلَيْهِ بِالْذُمُوعِ وَلَوْ أَبَتْ
بَكَيْتُ عَلَيْهِ بِالتَّجْدِ وَالصَّبْرِ
أُمُخْبِرْتِي كَيْفَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ النَّوَى
على أَنَّ عِنْدِي مَا يَزِيدُ عَلَى الْخُبْرِ
وما فعلتُ تلكَ المحاسنُ في الثرى
فقد ساءَ ظنِّي بين أدري ولا أدري

وتمتاز هذه القصيدة بصدق العاطفة وسموها، وبراعة الاستقصاء لكثير من معاني الحزن الخفية، وتتراوح بين المبالغة في المواقف والحديث العاطفي المباشر الذي يكشف عن فداحة الأسى وعمق الشعور.

التطيلي الوشاح

شارك التطيلي في فني الشعر والموشحات، وشهرته الكبيرة جاءت من الموشحات. ولنستمع إلى القصة التي يرويها صاحب كتاب نفع الطيب، وفيها الدليل القوي والبرهان الساطع على براعة وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا (6) التطيلي في هذا المجال، وطول باعه فيه، إذ يقول

الشان بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها، فتقدم الأعمى التطيلي للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

ضَاكِكْ عَنْ جُمَانٍ سَافِرٌ عَنْ بَدْرِ

(7) ضَاقَ عَنْهُ الزَّمَانُ وَحَوَاهُ صَدْرِي

(8). (خرق ابن بقي موشحته وتبعه الباقر)

مزق الوشاحون موشحاتهم بعد أن أيقنوا أنهم عجزوا عن اللحاق بالتطيلي الذي بلغ الشأو والغاية في هذا المضمار. ويضيف الدكتور إحسان عباس موضحاً السر في إعجابهم الشديد بموشحة التطيلي: (لقد وجدوا فيها عذوبة سائغة، وسياقاً حلواً، واسترسالاً، وعبارات مستقلة في ذاتها، (9) وخرجة لطيفة رقيقة).

من طرائف أخباره وأشعاره

نشب نزاع بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن في التفضيل بين البرين: بر الأندلس وبر العدة (المغرب العربي)، فطلب الأمير منهما أن يعمل كل واحد منهما رسالة في تفضيل بره، فكانت :، ومما جاء فيها (10) رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس

(11): وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره وسواد شعره وهو التطيلي (

أما اشْتَقْتُ مِنِّي الأَيَّامُ فِي وَطَنِي حَتَّى تُضَايِقَ فِيمَا عَنَّنْ مِنْ وَطَرِي

ولا قُضْتُ مِنْ سَوَادِ العَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكُرُّ عَلَيَّ مَا طَلَّ فِي الشَّعْرِ

ويذكر المقرئ صاحب كتاب نفع الطيب أن ابن بقي دخل الحمام وفيه الأعمى التطيلي، فقال

له: أجز

حَمَامُنَا كَرَمَانَ الْقَيْظِ مُحْتَدِمٌ وفيه للبردِ صرٌّ غيرُ ذي صررِ

فقال الأعمى التطيلي

(12) ضِدَانٍ يَنْعَمُ جِسْمُ الْمَرْءِ بَيْنَهُمَا كَالْعُصْنِ يَنْعَمُ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْمَطَرِ

وقد أجاد التطيلي أيما إجادة في وصفه لأسد من رخام يقذف الماء من فيه على بحيرة حين
(13) قال:

أَسَدٌ وَلَوْ أَنِّي أَنَا قِسْتُهُ الْحِسَابَ لَقُلْتُ: صَخْرَةٌ

وَكَأَنَّهُ أَسَدُ السَّمَاءِ يَمْجُجُ مِنْ فِيهِ الْمَجْرَةَ

وفي هذين البيتين صورة رائعة مبتكرة، لم يسبقه إليها شاعر قديم أو معاصر . على ما أعتقد .
هذا على الرغم من كفه المعروف

وله أبيات كثيرة تتم عن عميق تجربته للحياة والناس، ومدى معاناته منهما، وترقى هذه الأبيات
(14) إلى مستوى راقٍ من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة. وهو القائل

تتافس الناس في الدنيا وقد علموا أن سوف تقتلهم لذاتها بددا

قل للمحدث عن لقمان أو لبدي لم يترك الدهر لقماناً ولا لبدا

وللذي همُّه البنيان يرفعه إن الردى لم يُغادر في الثرى أحدا

ما لابن آدم لا تفنى مطامعه يرجو غداً وعسى أن لا يعيش غدا

(15) وهو القائل أيضاً

والناس كالناس إلا أن تجربتهم وللبصيرة حكم ليس للبصر

كالأيك مشتبهات في منابيتها وإنما يقع التفضيل في الثمر

!ومن أدرى بقوة البصيرة وصدقها من شاعر فقد البصر، وجرب مرارة الحرمان؟

الخاتمة

تلكم هي قصة الأعمى التطيلي؛ ذلك الشاعر الذي تمكن من بلوغ قمة الشعر والأدب في عصره، واستطاع أن يتفوق على كثير من معاصريه الشعراء؛ بالرغم من إعاقته التي لم تشكل حائلاً يحول بينه وبين تحقيق طموحاته وآماله؛ بل كانت حافظاً قوياً حثه على بذل الكثير من الجهد والعناء لتعويض ما فاتته من قوة الإبصار؛ فاكسب بذلك حدة في الذكاء وقوة في رفعته إلى تلك المرتبة العالية في الأدب، وجعلته علماً من أعلام الشعر الأندلسي في القرن السادس الهجري

ولا ندري على وجه اليقين ماذا سيكون عليه أمره لو كان مبصراً ينعم بحاسة البصر، ولم يكن كفيفاً فاقداً لها.

إنه . على الأغلب . كان سيفقد دافعاً قوياً هاماً يدفعه إلى السعي والكفاح والمثابرة لتحقيق هدف كبير أو انجاز عمل عظيم يشعره بتعويض النقص وسد العجز